(٤)

السيدة حفصة ابنة عمر - رضى الله عنهما

حفصة ابنة عمر بن الخطاب، كان لأبيها عند الله وعند رسوله منزلة المجاهدين الأبرار، وكان لعمر - رضى الله عنه - فى الإسلام أعمال ضخمة، فخمة، رفعته مكاناً علياً عند الله، وعند رسوله وعند المسلمين، وفى صحائف التاريخ الإنسانى الناصعة البياض، لم يكن من السابقين الأولين إلى الإسلام بحساب الزمن، ولكنه كان من السابقين الأولين بحساب العطاء والإنجاز العظيم الذى قدمه للإسلام وهو مأمور، وقدمه للإسلام وهو أمير آمر.

وبعض الكاتبين المعاصرين - عباس محمود العقاد - يَعدُّه الرجل الثانى فى الإسلام بعد صاحب الرسالة، باعتبار ما بذله من جهد فى بناء الدولة الإسلامية، بعد الفترة القصيرة التى قضاها الصديق أبو بكر فى قيادة تلك الدولة فى أخطر مراحلها، وأدقها، بعد ذلك الفراغ المهول الذى نتج عن انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

أطال الله قيادة عمر للدولة الإسلامية الناشئة، حتى بلغت ستة

أضعاف مدة قيادة أبى بكر، وكأن الله أراد بهذا الطول فى خلافة عمر أن يعوضه ما فاته من السبق إلى الإسلام فى بداية الدعوة، فأحسن عمر القيادة وشَاد أركان الدولة - شكلاً ومضموناً - على أروع مثال، ووطَّد دعائمها داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، ووضع نظامها الفقهى والدستورى والإدارى والسياسى بعزيمة لا تعرف الفتور، وقوة لا تعرف الضعف، وشدة فى الحق لا تعرف اللين، ووعى لا يعرف الغفلة، فلا عجب أن يدعوه أستاذنا العقاد - رحمه الله - «الرجل الثانى» فى الإسلام بعد مؤسس الدولة الأول محمد ﷺ.

وليس فى ذلك انتقاص لدور الصديق، ولا مبالغة فى دور الفاروق، ولكنه الواقع حين يقاس بمقاييس النظر الظاهر، وحينما تقارن المقادير بالمقادير، أما مكانة الرجلين عند الله فقد أجمع علماء الأمة - غير الشيعة - على أن أبا بكر أفضل الأصحاب عند الله، يليه عمرّ - رضى الله عنهما - وكان رسول الله يعرف لعمر قدره حتى قبل أن يُسْلم عمر، ويدعو الله أن يعز الإسلام بإسلام عمر، ثم استجاب الله فأسلم عمر، وعلا شأنه بالإسلام، كما أعلى هو شأن الإسلام.

وأحبه النبى أيما حب، ونزَّله من نفسه أكرم منزل، وعرف له أياديه فى الإسلام، وكفاحه فيه، وسعيه على نصرة حق الله، وتخذيل باطل الشيطان.

كانت حفصة ابنة عمر موضع حب وإيثار لديه، وكان زوجها خنيس بن حذافة بن قيس السهمى القرشى من السابقين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة مع من هاجر من السابقين فراراً بدينهم، ولما عاد إلى المدينة لم يشهد أحد من السهميين غزوة بدر غير خنيس هذا، ثم كان ممن شهد غزوة أحد، وكان قد أصيب بجرح كان سبباً فى موته شهيداً - رضى الله عنه - وبموته ترملت حفصة الشابة (سبع عشرة سنة) وحزن عمر على ترمل حفصة حبيبة قلبه، واشتدت شفقته عليها وعلى شبابها أن تغتاله الوحدة والغموم، وطول الليالى والوحشة.

ففكر عمر أن يبحث لها عن منقذ، فكلم فى شأنها أبا بكر وعرض عليه أن يتزوجها على أم رومان، فسكت أبو بكر، لم يرفض ولم يقبل، فحز ذلك فى نفس عمر، واشتد به الضيق، فذهب إلى عثمان، وكان يومئذ أعزب، فعرض عليه الزواج من حفصة، فسكت عثمان كما سكت أبو بكر من قبل، فتضاعف غضب عمر عما كان يجده مرات، وعظم عليه أن يخيب رجاءه صاحباه أبو بكر وعثمان - رضى الله عنهما - وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فعزم أن يشكو أبا بكر وعثمان إلى النبى الكريم، فذهب إليه، وقص عليه ما كان من أمر صاحبيه، وكيف أنه عرض على كل منهما أن يتزوج حفصة ابنته فلم يجد عند أحد منهما رغبة.

استمع إليه النبى ﷺ، ثم قال له:

«يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصةَ؟».

وزال الكابوس الذى كاد يفترس أنفاس عمر، وعلم أن الذى هو خير من عثمان هو النبى ﷺ، فهو إذاً زوج حفصة، ياللسعادة الغامرة التى تسبح فيها حفصة، ويسبح فيها أبوها، قبل أن تسبح هى فيها.

أما من هى خير من حفصة سيتزوجها عثمان، فهى بنت رسول الله ﷺ.

ولم يسكت أبو بكر وعثمان استخفافاً بعمر وابنته، لكنهما سمعا النبى ﷺ يذكرها بعد استشهاد زوجها فخشيا أن يكون أراد ضمها إلى أمهات المؤمنين، ولم يُعلما عمر بما سمعا كراهة أن يفشيا سر رسول الله ﷺ، ثم تكشفت هذه الأمور لعمر فيما بعد.

لماذا تزوج النبى حفصة - رضى الله عنها؟!

إن الأسباب التى دعت رسول الله ﷺ إلى الزواج من السيدة حفصة ابنة صاحبه عمر بن الخطاب، بعيدة كل البعد عما أثاره المبشرون والمستشرقون واليهود، والملحدون، والقارئ الكريم يستطيع - بكل يسر - أن يعرف أسباب زواجه عليه السلام منها

من العرض الموجز الذى قدمناه، وهى كبيرة الشبه بالأسباب التى دعته إلى التزوج من عائشة الصديقة بنت الصديق.

إنها التكريم والوفاء وحسن الصلة والبر والتودد إلى هؤلاء الرجال العظام الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله - عز وجل - ووقفوا كل حركة من حركاتهم على ما يرضى الله ويرضى رسوله، ولا يملك محمد ﷺ أن يكرمهما بما هو أعظم من مصاهرته لهما، وكفى بذلك تكريماً ووفاءً وإعزازاً.

بيد أن زواجه من السيدة حفصة يضم سبباً آخر زائداً عن الأسباب التى دعته إلى مصاهرة أبى بكر - رضى الله عنه - كما دعته إلى مصاهرة عمر بعد مصاهرة أبى بكر، ذلك السبب هو المواساة والرحمة والإحسان إلى حفصة لكرم أبيها واستشهاد زوجها وحسن بلائه فى الإسلام، ولتقواها هى وصلاحها فى الدنيا والدين.

وأنجز الله ما وعد رسوله، تزوجت حفصة من هو خير من عثمان، وتزوجت عثمان من هى خيرٌ من حفصة، وهى أم كلثوم - بنت محمد رسول الله ﷺ - ذلك هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال الذى يردده خصوم الإسلام.

* * *